الأسلوب والأسلوبية

بين وحدة المصطلح وتعـــدد الماهيـــة .

أ . أحـــد بلخضر
جامعة ورقلة
الجزائر

لكل علم من العلوم حدود ومعالم تميزه عن غيره من العلوم الأخرى، فهل لهذه الأسلوبية أو "علم الأسلوب" حدود ومعالم ثابتة يستطيع الدارس أن يرتكز عليها في معالجة الخطاب في شتى أنواعه وتوجهاته ؟

للإجابة عن هذا التساؤل نطرح أولا معالجة مفهوم كل من الأسلوب –في صفته القاعدة الأساسية للدراسة– وكذا مفهوم الأسلوبية –في صفتها دراسة لهذه القاعدة–.

أولا: الأسلـــوب :

تتعدد وتتلون آراء الدارسين والمهتمين بتحديد ماهية الأسلوب وحقيقته بحسب العناصر التي يرتكز عليها كل منهم للإحاطة بطبيعة الأسلوب في صفته ميدانا تطبيقيا لكل لون من ألوان الدراسة .

لا يسع المجال لسرد جل هذه المحاولات، والتي بلغ عددها كما قيل: « ... في بعض الأحيان إلى نيف وثلاثين تعريفا» (1).

وعليه يمكننا التعرض إلى عينات تمثيلية لبعض هذه الجهود من خلال المقولات الآتية في تعريف الأسلوب؛ فالأسلوب هو: «..ما نضفي على أفكارنا من نسق وحركة (بيير قيرود)(2)، الاستعمال نفسه (شارل بالي)(3)، طريقة الإنسان في التعبير عن نفسه كتابة (مجدي وهبة)(4)، فهو الإنسان نفسه (بيفون)(5)، مقولة

متميزة خاصة (ريفاتير)(9) هو الوظيفة التي تجعل الخطاب ويتحدد بواسطة عمليتين متواليتين في الزمن، متطابقتين في الوظيفة (جاكبسون)(10)، يعد نتيجة لاختيار المؤلف من مختلف التحولات الاختيارية الممكنة (أوهمان)(11)، ظاهرة ذات طبيعة تشبه طبيعة البذور يهدف إلى نقل الحالة والمزاج ليستزرعها في نفس القارئ (رولان بارت)(12)، قوة ضاغطة تتسلط على حساسية القارئ بواسطة إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها (ريفاتير)(13)، شبيه بالسمة الشخصية (أفلاطون)(14)، هو سمة الروح (سينيك)(15)، بصمات تحملها صياغة الخطاب فتكون كالشهادة التي لا تمحي (بروست)(16) » .

إن الذي يستقرئ هذه التعريفات يقف في العموم على أربع وجهات نظر ، أو اتجاهات تتشكل على النحو الآتي :

- **الاتجاه الأول** : يسعى إلى تحديد معالم الأسلوب في عمومياته دون الولوج في التفاصيل الدقيقة .
- **الاتجاه الثاني** : ينحو نحو تحديد مفهوم شامل ودقيق للأسلوب بالتطرق إلى العناصر الجزئية المكونة للأسلوب.
- **الاتجاه الثالث** : يسعى حسب التراكيب المستعملة في ثنايا التعريفات إلى تبيان وظيفة الأسلوب.
- **الاتجاه الرابع** : ينظر إلى الأسلوب على أنه سمة أو علامة خاصة مميزة

استاتيكية تنسحب بصورة مماثلة على جميع أشكال الفن وتتسم بها الحياة والكلام الجاري (أ.ف.تشيشرين)(6)، هو أوصاف الخطاب الأكثر خصوصية والأكثر ندرة التي تسجل عبقرية أو موهبة الكاتب أو المتكلم (دلامبير)(7)، هو مظهر القول الذي ينجم عن اختيار وسائل التعبير (جيراو)(8) ، إبراز عناصر الكلام، وحمل المتلقي على الانتباه لها بحيث إذا غفل عنها شوه النص، وإذا حللها وجد فيها دلالات متميزة خاصة (ريفاتير)(9)، هو الوظيفة المركزية المنظمة للخطاب ويتعدد بتوافق عمليتين متواليتين في الزمن، متطابقتين في الوظيفة (جاكيبسون)(10)، يعد نتيجة لاختيار المؤلف من مختلف التحولات الاختيارية الممكنة (أوهمان)(11)، ظاهرة ذات طبيعة تشبه طبيعة البذور يهدف إلى نقل الحالة والمزاج ليسترزعها في نفس القارئ (رولان بارت)(12)، قوة ضاغطة تتسلط على حساسية القارئ بواسطة إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها (ريفاتير)(13)، شبيه بالسمة الشخصية (أفلاطون)(14)، هو سمة الروح (سينيك)(15)، بصمات تحملها صياغة الخطاب فتكون كالشهادة التي لا تمحي (بروست)(16) » .

إن الذي يستقرئ هذه التعريفات يقف في العموم على أربـــع وجهات نظـــر ، أو اتجاهات تتشكل على النحو الآتـــي :

- **الاتجاه الأول** : يسعى إلى تحديد معالم الأسلوب في عمومياته دون الولوج في التفاصيل الدقيقة .
- **الاتجاه الثاني** : ينحو نحو تحديد مفهوم شامل ودقيق للأسلوب بالتطرق إلى العناصر الجزئية المكونة للأسلوب.
- **الاتجاه الثالث** : يسعى حسب التراكيب المستعملة في ثنايا التعريفات إلى تبيان وظيفة الأسلوب.
- **الاتجاه الرابع** : ينظر إلى الأسلوب على أنه سمة أو علامة خاصة مميزة

للمؤلف ومحيطه .

فالواضح إذا في هذه المحاولات أن الاختلاف بيِّن -بالرغم من وحدة المصطلح- في تحديد ماهية الأسلوب الذي تنبني حوله الدراسة التي تعرف بالأسلوبية أو علم الأسلوب .

وإذا أردنا أن نخلص -بعد طرحنا لهذه الاتجاهات الأربعة- إلى وضع تصور شامل للأسلوب عند كل اتجاه من هذه الاتجاهات على حدة، نقول: إن ملخص مفهوم الأسلوب عند أصحاب الاتجاه الأول يكمن في كونه عبارة عن موقف يتخذه الكاتب نحو موضوع ما فيعبر عنه باللغة بحيث تتشكل هذه اللغة في نظام له طرق وكيفيات مختلفة تنتهي في الأخير إلى تكوين ما يسمى بالنص الفني شفاهة كان أم كتابة .

وأما الأسلوب من منظور أصحاب الاتجاه الثاني فهو النتائج المحصلة لظاهر القول في شكل بناء للمعاني مرتبة تتميز بالندرة والدقة الناجمة عن عملية اختيار أدوات التعبير اللغوية من بين الاختيارات المتاحة للكاتب .

ويبرز الأسلوب في مفهوم أصحاب الاتجاه الثالث في عملية الاختيار أو الانتقاء التي يقوم بها محرر الأسلوب المصحوبة أو المشحونة بقوة الضغط المبنية على التقدير المميَّز والمتجدد في شكله الظاهري والخفي من أجل تطوير اللغة وترقيتها.

وينحصر مفهوم الأسلوب عند أصحاب الاتجاه الرابع في كونه الشكل الدائم للخطاب الذي يعبر به الإنسان الكاتب عن روحه وشخصيته .

وإذا كان الغرض من طرح هذه الاتجاهات المتعددة هو تبيان عدم اتحاد وجهات نظر الدارسين في تحديد ماهية مصطلح (الأسلوب)، فإن هذا لا يمنع من أن نحاول التوفيق بين هذه الآراء في لم شملها داخل تصور عام ومحيط لما سبق ذكره فنقول: إن الأسلوب هو موقف يتخذه الكاتب نحو موضوع ما، فيعبر عنه باللغة في

شكل بناء للمعاني مرتبة تتميز بالندرة والدقة الناجمة عن عملية الاختيار والانتقاء المصحوبة أو المشحونة بقوة الضغط المبنية على التقدير المميّز والمتجدد والبارز في الشكل الدائم للخطاب الذي يعبر به الإنسان الكاتب عن روحه وشخصيته .

إن النتيجة التي خلصنا إليها —بعد جمعنا لجهود الدارسين في إدراك ماهية الأسلوب- لا تعني بالضرورة أننا توصلنا إلى تحديد نهائي لطبيعة وحقيقة هذا المصطلح (الأسلوب) لأننا ببساطة نحاول أن نعيِّن حدود ما هو متحرك وهذا من الصعوبة بمكان وعليه يبقى الاجتهاد في هذا المجال —بمجال تعريف الأسلوب- مفتوحا على مصراعيه لكل دارس متعمق .

وإذا كانت هذه وضعية مصطلح (الأسلوب) في منظور بعض المهتمين به، فما هي يا ترى وضعية مصطلح (الأسلوبية) أو (علم الأسلوب) في صفته الدراسة: التي تتناول الأسلوب بالدرس والتحليل ؟

ثانيا: الأسلوبيـــة:

إن المتتبع لما كتب في مجال الدراسات الأسلوبية حول تحديد ماهية الأسلوبية أو علم الأسلوب يجد زخما كبيرا من آراء العلماء الدارسين لا يسع المجال لذكرها جميعا، وعليه سنحاول محورة هذه الآراء في نمطين اثنين؛ الأول يتطرق فيه أصحابه إلى محاولة الوقوف على المنهج الذي يسلكه الدارس لأسلوب الخطاب دون إغفال للوظيفة المنوطة بتوظيف هذا المنهج في تلك الدراسة. وهذه المحاولات يمكن الإشارة إليها باختصار من خلال المقولات التي تصف الأسلوبية في كونها: « ...منهجا لسانيا (دولاس)(17)...أو علما لسانيا يعتمد على القواعد البنيوية في دراسة اللغة (المسدي)(18)...أو هي لسانيات تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معيَّن وإدراك مخصوص (ريفاتير)(19)...أو هي علم خاص مواز لعلم اللغة يبحث في الظواهر اللغوية نفسها (استيفان أولمان)(20)...أو هي علم يدرس اللغة ضمن

نظام الخطاب (منذر عياشي)(21)» .

إذا كانت حدود الأسلوبية –في المقولات الثلاثة الأولى- تكاد تتحد لفظا ومعنى، في تحديد المنهج الذي يسلكه دارسوا الأسلوب أثناء تحليلهم للخطاب، فإن عمومية المنهج تتضح جليا في المقولتين الأخيرتين حيث لم توضح طبيعة هذا المنهج العلمي الذي يدرس اللغة في كينونتها داخل نظام الخطاب.

وإذا ما انتقلنا إلى النمط الثاني من التعريفات المتعددة المبذولة في محاولة تبيان ماهية الأسلوبية أو علم الأسلوب من خلال الوظيفة فحسب، نجدها تبرز في المقولات الآتية: « ...البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب (دولاس)(22)...أو هي بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا (جاكيبسون)(23)..أو هي وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات (ميشال آريفاي)(24)..أو هي الإجابة عن السؤال كيف عبّر النص عن دلالته الجزئية والكلية...وأنها تقدم **الإجابة عن السؤال** بالأسباب والعوامل الأساسية المسؤولة عن اختلاف الأساليب **(عدنان حسين قاسم+**جوزيف سترلكا)(25) »

ولكي لا نترك وجهات النظر هذه مشتتة نحاول الاستفادة منها في الخروج **بتعريف موحد** –للأسلوبية أو علم الأسلوب من جانبي المنهج والوظيفة- وذلك **من خلال الوقوف** على عناصر التقاطع والاختلاف البارزة في صيغها المختلفة، **فنخلص إلى القول: إن** الأسلوبية أو علم الأسلوب دراسة لغوية تعتمد على المناهج **العلمية بعامة والمنهج** اللساني بخاصة في البحث عما يتميز به الكلام –عن سائر مستويات الخطاب بخاصة وسائر الفنون الإنسانية بعامة- من خصائص ومميزات، ومحاولة الإجابة عن الأسباب والعوامل التي أوجدتها وفقا لأسس موضوعية.

مما تقدم نستطيع القول: إن حدود الأسلوبية بالنسبة للدراسة اللسانية

تكمن في أنها تعتمد المنهج اللساني في صفته العمود الفقري لدراسة الخطاب دراسة موضوعية. إلا أنها في الوقت ذاته تستعين بمناهج العلوم الوصفية الأخرى بحسب الحاجة الملحة إليها، وبهذا تكون الأسلوبية مستقلة عن اللسانيات استقلالا ذاتيا وليس كليا.

تلك هي إذن في العموم علاقة الأسلوبية بالدراسة اللسانية، فما هي علاقتها وحدودها مع الدراسة النحوية والبلاغية؟

إن الفروق بين النحو والأسلوبية واضحة المعالم ولا تحتاج إلى إجالة فكر أو عمق نظر؛ فالنحو يسعى إلى ضبط القوانين المنظمة للكلام ويدعو إلى عدم تجاوزها أو خرق حدودها، والأسلوبية تسعى إلى تبيان مجالات التصرف داخل هذه القواعد النحوية المنظمة لجهاز اللغة، لغة الخطاب التواصلي.(26) وتبرر هذه العملية في مصطلحات كثيرة، منها الانزياح أو الانحراف أو الانتهاك أو العدول...إلخ .

وأما الفروق بين الأسلوبية والبلاغة فتكمن في علاقة البديل للوجود الكينوني ذاته للدراستين (البلاغية والأسلوبية)، لأن الأسلوبية كما يقول البعض: « وليدة البلاغة ووريثها المباشر»(27) .

والذي هو من الطبيعي أن يكون الوريث امتدادا طبيعيا للموروث في كثير من الصفات الوراثية إن لم يكن في جلها. والذي عليه الإرث في صفة الدراسات الأسلوبية أنها امتداد بديلي مغاير للموروث ونافي له، ولعل هذا ما خوّل لبعض الدارسين(28) الوقوف على المفارقات المبدئية بين المنظورين البلاغي والأسلوبي، والتي يمكن أن نجملها في القول: إن الدراسة البلاغية تنطلق من معايير معروفة ومحددة، وتطالب بمحاذاتها وتقيِّم على منوالها، بينما تسعى الأسلوبية إلى الابتعاد عن المعيارية والقواعد والمعايير المسبقة والاعتماد على مناهج العلوم الوصفية، والسعي إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتحدد وجودها الفعلي في نص

الخطاب.

نستطيع من هذا التصور الحدودي للأسلوبية أو علم الأسلوب —في إطار المجاورة لعلوم اللسان والنحو والبلاغة- أن نتبيَّن وظيفة هذه الدراسة في أربعة محاور رئيسية هي :

1- أنها توظف المنهج اللساني وتستعين بمناهج العلوم الوصفية الأخرى في دراسة نص الخطاب .

2- أنها تهتم بما هو متجدد داخل قواعد النحو العامة .

3- أنها تبتعد عن المعيارية والمقاييس الجاهزة .

4- أنها تسعى إلى تحديد الظواهر الإبداعية المتواجدة داخل النص وتعليلها تعليلا موضوعيا .

نستشف من هذه المحاور الأربعة أن الوظيفة الرئيسية لدراسة الأسلوب تكمن في البحث عما هو جديد ومتميز من ظواهر إبداعية غير مألوفة والبعد عن المعايير الجاهزة في هذه الظواهر، بل تسعى إلى تعليلها تعليلا يقترب من العلمية ويبتعد عن الذاتية .

وإذا وضعنا هذا التصور محكا للسؤال، وتساءلنا: كيف تتم عملية فرز الجديد دون معرفة القديم الذي هو معيار لقياس كل ما هو جديد؟ وما هي حقيقة جماليات التعبير من النتائج العلمية التي تسعى الأسلوبية الوصول إليها؟ وإذا كنا قد نسبنا المعيارية إلى البلاغة ونفيناها عن الأسلوبية، فكيف نبرر حتمية وجود معايير مسبقة لمعرفة الجديد المبتدع ؟

ولعدم وجود إجابة شافية لهذه التساؤلات —على حد اطلاعنا المحدود- ننهي حديثنا هذا بالقول: إن الأسلوبية أو علم الأسلوب لا يمكن —إذا أردنا أن يبقى حيويا- أن نحصر أدواته ومعاوله في أنماط ثابتة نطبقها على جل أنواع

الخطاب مما قد يكسبها المعاصرة ويؤدي بها في الأخير إلى الجمود والابتعاد عن مواكبة التجدد المنشود من وراء هذه الدراسة الإجرائية، دراسة أسلوب الخطاب الإنساني المتجدد بتجدد الإنسان في حدّ ذاته في صفته حيوانا ناطقا وحالما ومبدعا.

ولعل وجود هذه الحركية الإبداعية المتحركة دوما في نص الخطاب هي التي أوجدت تعدد وجهات نظر الدارسين في ماهية كل من الأسلوب والأسلوبية بالرغم من وحدة المصطلح، وأدت بالبعض إلى أن يتساءل: هل الأسلوبية علم أم لا؟ ويجيب بالطريقة الآتية: « الأسلوبية هي تحليل لغوي موضوعه الأسلوب وشرطه الموضوعية وركيزته الألسنية »(29) .

وبهذه العناصر الأربعة ذات الدلالة الواسعة —في منظور هذا التعريف- تتقوى ماهية الأسلوبية في كونها دراسة تستند إلى جذور متينة واضحة المعالم وتتمتع بفروع متجددة متحررة تكتسب جدتها وحريتها من نص الخطاب الذي تعالجه في حين زمانه وحدود مكانه .

الهوامش

1-صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ، القاهرة 1992، ص:84.

2-عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، 1982، ط2، ص : 65.

-انظر : P.Guirand : La linguistique –P27.

3-محمد عزام ، الأسلوبية منهجا نقديا، منشورات وزارة الثقافة،دمشق،1982، ص :27.

4-نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مؤسسة هومه للطباعة،ج1، ص :130.

-انظر، مجدي وهبة، معجم المصطلحات الأدبية، مكتبة بيروت،لبنان ،1974،ط1، ص :542.

5-عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق ،1980، ص : 168.

6-ف.تشيتشرين، الأفكار والأسلوب، ترجمة حياة شرارة،وزارة الثقافة ، بغداد،1978، ص : 8-9.

7-نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، المرجع السابق ، ج1، ص : 131.

8-صلاح فضل، علم الأسلوب، المرجع السابق، ص : 110.

9-عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، المرجع السابق، ص : 155.

10-المرجع نفسه، ص : 154.

11-صلاح فضل، علم الأسلوب، المرجع السابق، ص : 100-101.

12-المرجع نفسه، ص : 154.

13-عدنان حسين قاسم ، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر، مؤسسة علوم القرآن ،عجمان الشارقة، دار ابن كثير،دمشق،بيروت ، 1412هـ-1992م،ط1، ص : 104.

14- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، المرجع السابق ، ص : 131.

- انظر : P.Guirand : La Stylistique –P22.

15-المرجع نفسه، ص : 131.

16-المسدي، الأسلوبية والأسلوب، المرجع السابق، ص : 70.

17-المرجع نفسه، ص : 48.

- انظر مقدمة : Essais de stylistique structurale –P12.

18-المرجع نفسه، ص : 48.

19-المرجع نفسه، ص : 49.

20-عدنان حسين قاسم، المرجع السابق، ص : 98.

-انظر، جوزيف شتريلكا، الأسلوب الأدبي، ترجمة مصطفى ماهر، مجلة فصول ، القاهرة، المجلد الخامس ،العدد الأول، ص : 71.

21-منذر العياشي، مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص : 148.

22-المسدي، المرجع السابق، ص : 34.

-انظر مقدمة دولاس لكتاب: M.Riffaterre, Essais de stylistique structurale P12.

23-المرجع نفسه، ص : 37.

-انظر، ج1، ص : 210 من Essais de Linguistique générale

24-المرجع نفسه، ص : 48.

-انظر، ص : 04 من مجلة: Langue française N°3-sept 1969

25-عدنان حسين قاسم، المرجع السابق، ص : 101.

26-المسدي، المرجع السابق، ص : 56.

27-المرجع نفسه، ص : 52.

28-المرجع نفسه، ص : 52.

29-جوزيف ميشال شريم، دليل الد، اسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1407 هـ-1987م ،ط2، ص : 37-38.